سنة وماهية ثلاث سنين لمن تبلغ خدمتهُ ثلاثين سنة فاكثر . ويدخل هذه المعاملة تعامل المسافرين ايضاً تلك في قواعد وضع ورفع وتحصيل الضرائب ومن يمعن النظر فيها يتبين لهُ ان بلادنا السعيدة قد توفرت فيها المبادئ الاربعة الاساسية التي يتوقف على وجودها صيانة العدالة في موضوع الضرائب وهي

اولاً المساواة في وضع الضرائب بين مختلف الطبقات من الناس

ثانياً معرفة كل من ذوي الشان بقيمة الضرائب المتعين عليهِ دفعها في كل سنة والوقت المعين لتسديد كل جزء منها

ثالثاً ترتيب اوقات تحصيل الضرائب في ذات اوقات ظهور المحاصيل بحيث يسهل لكل ممول ان يدفع ما عليهِ من ثمن غلات ارضهِ

رابعاً عدم المحاباة في التحصيل . ذلك بان لا يدفع الضعيف اكثر مما يدفع القوي وبالعكس

جرجس حنين

عبد الله المأمون

كان لدولة بني العباس في بغداد شأو بعيد من البسطة والجاه ومقام عالٍ في الحضارة والعمران فكانت تمتدُّ من الشرق حتى ارض الهند وبعض الصين ومن الغرب الى البحرين الاسود والمتوسط ومن الشمال حتى سيبريا وبحر قزوين ومن الجنوب الى بحر فارس وما يلي مصر من بلاد النوبة . على ان اعظم خلفاء هذه الدولة شأناً واعزهم سلطاناً الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور والخليفة السابع عبد الله المأمون صاحب الترجمة

ولد عبد الله المأمون سنة ١٠٧ للهجرة قبل ما مات الخليفة الهادي جاء يحيى بن خالد البرمكي الى ابيهِ هرون الرشيد فاعلمهُ بموت الخليفة وانتهاء الملك اليهِ وبينما هو يكلمهُ اذ اتاهُ رسول آخر يبشرهُ بمولود فسرَّ كثيراً وسماهُ عبد الله

ولما ترعرع عبد الله عهد الرشيد بتهذيبهِ الى جماعة من العلماء والفقهاء كحماد بن العوّام ويوسف بن عطية وابي معاوية الضرير وغيرهم من خيار اساطين العلم والفقه فبذلوا الوسع في تثقيفهِ وارشادهِ حتى برع في اللغة والفقه والتاريخ . قال المسعودي دخل الكسائي يوماً على الرشيد فرأى ولديهِ محمد الامين عن يمينهِ وعبد الله المأمون عن يسارهِ وهما كالاقمار الطالعة فسألهُ الرشيد رأيهُ فيهما فاجابهُ ما اقول وقد رأيت فيهما ما حيَّر فكري من الفصاحة

والاحتشاد على صغر سنها فلم اسائلها عن امر الا وجاوبني جواباً شافياً فضمها الرشيد الى صدره وجالت الدموع في عينيه وقال ويلكي ارى في عبد الله المأمون نجابة وانهُ شديد الهمة وارى في محمد الامين البلادة والبرودة واني اذا وليت العهد بعدي لعبد الله فلا يهون ذلك على بني هاشم اخوال الامين وربما ثارت بينهم الفتن واذا وليت العهد الامين فلا آمن من تدبير المملكة

وفي سنة ١٨٣ تبيّن الرشيد في عبد الله طلائع الذكاء وتوقد الخاطر فبايعهُ ولاية العهد بعد الامين وولاّهُ خراسان وما يتصل بها الى همذان ولقبهُ المأمون فاقام ينظر في شؤونها وحولهُ جماعة من الخبيرين بالسياسة والعارفين بابوابها ينكبون بهِ عن مواضع الزلل ويرشدونهُ الى ما فيهِ خيرهُ وصلاح الرعية كغيلان الشعوبي ومحمد بن موسى الخوارزمي ويحيى بن منصور والفضل بن نوبخت ويشد ازرهُ جند خراسان وهم اخوالهُ لان امهُ فارسية كل ذلك وما ميزهُ الله بهِ من الذكاء وعزم الهمة دفع بنفسهِ الكبيرة ان تسير سيرة العظماء فتتحلى بالعدل والحلم وتتجمل بكثير من الفضائل . رأى الرشيد منهُ ذلك فطابت نفسهُ وارتاح اليهِ حتى اذا حجَّ بالناس سنة ١٨٧ كتب كتابين اشهد فيهما الفقهاء والقادة والقضاة على مبايعة العهد للامين ومن ثمَّ لاخيهِ المأمون وعلّق الكتابين في الكعبة على ان بضعة من العقلاء تخوّفوا عاقبة هذه المبايعة وحسبوا لما ينجم عنها من العداء بين الاخوين الف حساب

وكان رافع بن الليث قد خرج سنة ١٩٠ عن طاعة الرشيد بسمرقند فيما وراء النهر فزحف الرشيد لاخضاعهِ سنة ١٩٢ ولما صار على الطريق مرض فدخل مدينة طوس واستحكمت العلة منهُ فمات سنة ١٩٣ وبويع الامين بالخلافة من عسكر ابيهِ وجلّة اهل بيتهِ وظلَّ المأمون في خراسان يتولّى ما كان بيدهِ الاّ انهُ اهدى الى اخيهِ وكتب اليهِ وعظّمهُ

عهدت الخلافة للامين ولم يكن كفوًّا لها بل كان على ما نقل رواة اخباره ضعيف الرأي انصرف الى اللهو وادمان الخمر ومعازلة الحسان واجراء الرزق عليهن وقسّم ما في بيوت الاموال من الجواهر والحلي على نسائهِ وخصيانهِ وبالجملة كان على ما قالهُ صاحب مختصر الدول فيهِ "لم يكن في سيرتهِ ما يستحسن ذكرهُ من حكمةٍ او معدلةٍ" . وكان من امروانهُ بعد ان استتبَّ لهُ الملك خلع اخاهُ المأمون من ولاية العهد باغراء الفضل بن الربيع وامر بالدعاء على المنابر لابنهِ موسى وسماهُ الناطق بالحق وكان طفلاً صغيرًا وكتب الى العمال في ذلك واسقط ايضًا ما كان قد ضرب لاخيهِ من الدراهم والدنانير خلطها من اسمهِ واسم امهِ الى الكعبة بمن احضر لهُ الكتابين اللذين وضعها الرشيد ببيعتهِ مع اخيهِ المأمون ورفعها

وكبر الامر على المأمون واستاء الناس كثيراً من خرق الامين لوصاية الرشيد ومن ثم تعددت بينها اسباب النفرة . منها انهُ كان قد اتصل برافع بن الليث حسن سيرة المأمون فطلب منهُ الامان فاجابهُ الى ذلك وحضر اليهِ وقدم هرثمة عليهِ فاكرمهُ وولاَّهُ الحرس فانكر الامين ذلك وكان ايضاً من داود بن عيسى عامل الامين في مكة ان جمع اليهِ وجوه الناس ومن شهد منهم على مبايعة الرشيد للامين والمأمون وحثهم على خلع الامين ومبايعة المأمون فاجابوهُ الى ذلك وكتب الى ابنهِ سليمان عاملهِ في المدينة في مبايعة المأمون ففعل ومن ثم قام الى خراسان ليعرض ولاءهُ على المأمون فاكرم المأمون وفادتهُ وبالغ في اعزازهِ كل ذلك زاد في الطين بلَّةً وادَّى الى انفصام عرى الاخوَّة واحتدام نار البغضاء

وخلاصة القول ان الامين امر علي بن ماهان ان يسير بجيش كثيف لمقاتلة المأمون فجهَّز على رواية ابن الاثير خمسين الف مقاتل ولما عزم على المسير من بغداد ركب الى باب زبيدة ام الامين ليودعها فقالت لهُ يا علي ان امير المؤمنين ان كان ولدي واليهِ انتهت شفقتي فاني على عبد الله (اي المأمون) متعطفة مشفقة لما يحدث عليهِ من مكروه فاعرف لعبد الله حق ولادتهِ واخوتهِ ولا تقتصرهُ اقتصار العبد اذا ظفرت يدٍ ولا تعنف عليهِ في السير ثم دفعت اليهِ قيداً من فضة وقالت ان صار اليك فقيدهُ بهذا القيد

وبلغ الخبر الى عبد الله المأمون فسيَّر هرثمة بن اعين في اقل من اربعة آلاف فارس وعلى مقدمتهم طاهر بن الحسين ولما التقى الجيشان رمى رجل اسمهُ داود بن سيَّاه علياً بسهم فقتلهُ وحمل رأسهُ الى طاهر فانفذهُ الى المأمون الا ان رواية ابن الاثير عن عدد جيوش الامين غير جديرة بالوثوق لما يستحيل عادة من انتصار اربعة آلاف مقاتل على الخمسين الفاً وهم يتساوون في العدة والتدريب الحربي وربما كان الاقرب الى الصواب رواية ابي الفرج عن عددهم حيث قال خرج علي في عشرة آلاف فارس

كان لانتصار طاهر على جيش الامين وقتل علي بن ماهان احسن وقع عند اهل خراسان وطابت لهُ نفس المأمون وتفاءل بالفوز التام لذلك امر ان يخطب لهُ بامير المؤمنين. اما الامين فشقَّ عليهِ ما لحق بعسكره من الفشل فوجه عبد الرحمن بن جبلة الانباري في عشرين الف رجل وامدَّهُ بالاموال فسار حتى نزل همذان وحصَّنها ورمَّ سورها فاتاهُ طاهر وخرج اليهِ عبد الرحمان الى ظاهر المدينة واقتتل الجيشان قتالاً شديداً حتى آل الامر الى انهزام عبد الرحمن الى همذان والقيام بها اياماً طوالاً وظاهر على ابوابها يشدد عليها الحصار الى ان سئم اهلها وتخوَّف عبد الرحمن ان يدفع بهم الضجر والتبرم الى الخروج عليهِ

وجيشهُ في حالة من الضنك لا يقوى معها على اخماد ثورتهم فطلب الى طاهر الامان لنفسهِ ولمن معهُ فأمنهُ فخرج عن همذان . .

الَّا ان عبد الرحمن بعد خروجهِ بعسكرهِ عن همذان لم يرضَ بالرجوع الى الامين بالخيبة والفشل فانتهز تأمين طاهر لهُ فرصة يغتنمها فيأخذهُ مع قومهِ على غرة ويعمل بهم السيف ويعود الى الامين ظافرًا منصورًا وهكذا كان منهُ ان هجم على طاهر واصحابهِ بغتة فثبت لهُ رجالة طاهر وقاتلوهُ قتالاً اخبوا معهُ الموت حتى قُتل عبد الرحمن وارتدَّ اصحابهُ منهزمين الى عبد الله واحمد ابني الحرشي وكانا في جيش عظيم قد سيَّرهُ الامين معونةً لعبد الرحمن فلما بلغ المنهزمون اليهما انهزما ايضًا في جندهما من غير قتال حتى دخلوا بغداد وخلت البلاد لطاهر فاقبل يحوزها بلدةً بلدةً وكورة كورة حتى قرب من بغداد سنة ١٩٧ فاقام على حصارها مع هرثمة عن اعين وزهير بن المسيب وجعلوا يحفرون من حولها الخنادق وينصبون المجانيق والامين يبيع ما في الخزائن من الامتعة ويضرب آنية الفضة والذهب ليفرقها على اصحابهِ ليخلصوا في الدفاع عن بيضة الملك والمحاصرون يضايقون عليها وينقم اليهم في كل اونة جماعة من القادة يبايعون المأمون ويقيمون معهم على قتال الامين حتى ضاق الامر بالاهلين وعمَّ البلاء وكانت هذه الحرب اول النكبات التي اصابت بغداد وقد وصفها الشعراء ومما قالهُ بعضهم عنها

بكيت دمًا على بغداد لما ... فقدت نُضارة العيش الانيق
تبدلنا همومًا من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتنا من الحساد عين ... فافنت اهلها بالمنجنيق
وقوم أحرقوا بالنار قسرًا ... وناعية تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصباحًا ... وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع ذات ذلٍّ ... مصمخة المجاسد بالخلوق
تفرُّ من الحريق الى اللهاب ... ووالدها يفرُّ الى الحريق

كل ذلك يدل على ما صارت اليهِ بغداد من الحالة الشؤمى والضنك الشديد وكان طاهر في تضاعيف ذلك يواصل القتال ويشدد الحصار ويمنع دخول الميرة اليها وقد صرف السفن عنها واحرق منازل الامين في الخيزرانة وكانت نفقتها عشرين الف الف درهم فهرب الامين الى الكرخ فاحاط عليها طاهر حتى دخلها بالسيف فلجأ الامين الى مدينة المنصور اي الجانب الغربي من بغداد وقد تفرَّق عنهُ عامة جنده وخصيانهِ وجواريهِ وكان ذلك سنة ١٩٨

ولما دخل الامين مدينة المنصور واستولى طاهر على اسواق الكرخ وغيرها علم ان لا حول لهُ على الحصار فيها فخطر لهُ ان يخرج منها ليلاً ويقصد الجزيرة والشام فيلتفُّ حولهُ اهل تلك البلاد فيكون لهُ مع المأمون شأن يذكر ثم خاف عاقبة الهرب وخشي ان يؤخذ اسيرًا فيكون في ذلك منيتهُ فرجع الى نفسهِ وعوَّل على ان يطلب الامان من هرثمة لانهُ اقرب اليهِ من طاهر واشفق عليهِ فارسل اليهِ يطلب الامان فاجابهُ الى ذلك وحلف لهُ انهُ يقاتل دونهُ ان همَّ المأمون بقتلهِ

فاستاء طاهر من طلب الامين وابى عليهِ ذلك وقال هو في جندي والجانب الذي انا فيهِ وانا الذي اخرجتهُ بالحصار حتى طلب الامان فلا ارضى ان يخرج الى هرثمة فيكون لهُ الفتح دوني ولذلك جعل حول قصرهِ قومًا يرقبون حركاتهِ . ولما كان الليل تهيأ الامين للخروج واذا بهرثمة قد بعث اليهِ برسول يقول لهُ ارى ان لا تخرج الليلة فاني رأيت على الشط ما رابني واخاف ان اغلب وتؤخذ من يدي وتذهب نفسك ونفسي فاقم الليلة حتى آتيك الليلة القابلة فان حوربت حاربتُ دونك فقال الامين للرسول ارجع اليهِ وقل لهُ لا يبرح فاني خارج اليهِ الساعة لا محالة ولست اقيم الى غدٍ ودعا بابنيهِ فضمهما اليهِ وقبلهما وبكى ثم جاء راكبًا الى الشط فوجد حرّاقة هرثمة فصعد اليها فاحتضنهُ هرثمة وضمهُ اليهِ وقبل يديهِ ورجليهِ فاحطَّ عليها اصحاب طاهر بالزوارق ورموها بالاجرّ والنشاب حتى غرقت فاخرج الملاح هرثمة من الماء واما الامين فلما سقط في الماء شق ثيابهُ فقبض عليهِ اصحاب طاهر وهو عريان وعليهِ سراويل وعمامة وعلى كتفهِ خرقة خلقة وحبسوهُ في بيت ولما انتصف الليل ارسل اليهِ طاهر قومًا من النجم فتناولوهُ واخذوا رأسهُ ومضوا بهِ اليهِ فأمر بدفن الجثة ونصب الرأس على برج من ابراج بغداد ومن ثمَّ دخل طاهر المدينة يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون

روى ابو الفداء وغيرهُ ان طاهرًا ارسل رأس الامين الى اخيهِ المأمون بخراسان وكتب لهُ بالفتح وارسل البردة والقضيب والخاتم فلما رآهُ بكى واسف عليهِ كثيرًا فقال لهُ الفضل بن سهل اتق الله يا امير المؤمنين فانهُ كان يؤثر ان يراك كما رأيتهُ على ان المأمون احتفظ على الرأس واصحبهُ معهُ الى بغداد ودفنهُ حيث كانت الجثة

قيل ان زبيدة زوجة الرشيد ام الامين طلبت الى ابي العتاهية الشاعر المشهور ان يقول عن لسانها ابياتًا يستعطف بها المأمون فارسل اليها هذه الابيات

ألا ان صرف الدهر يدني ويبعدُ ويمتع بالالاف طورًا ويفقدُ
اصابت يريب الدهر مني يدي يدي فسلمت للاقدار والله احمدُ

وقلت لريب الدهر ان هلكت يدٌ فقد بقيت والحمد لله لي يدُ
اذا بقي المأمون في فالرشيد لي وفي جعفرٌ لم ينتقد ومحمدُ

ولما انتهت ابيات زبيدة الى المأمون بكى واسر على الفور ان يرد لها جميع ما سلب منها وكتب اليها اني اقول كما قال علي بن ابي طالب ما أمرت بقتل عثمان ولا رضيت به

ولما وسد الملك للمأمون ودخل بغداد وضعت الحرب اوزارها واستوثق الناس في كل البلاد به واخلدوا الى الطاعة والسكون . يومئذٍ تجلّت مواهبهُ العظيمة في أكبر مظاهرها فانصرف الى نشر العدل وتوطيد الامن واعلاء منار العلم والعمل على رواج التجارة والصناعة واحياء الزراعة وكل ما من شأنهِ توفير اسباب العمران والعروج في مراقي المدنية والحضارة

الّا ان الهمم العالية لا تسالمها الايام طويلاً ولا تستكن لها الحوادث ليتهيأ لها الاتيان على رغائبها الجليلة من العمل لخير الانسان وتحسين حال المجتمع بل تبعث لها بالمشاغل تقطعها حيناً ريثما تظفر بها تعود الى شأنها من العمل الطيب من مثل ذلك حدث للمأمون يوم قرّب الحسن بن سهل منهُ وولاه فانكر الناس ذلك عليهِ حسداً منهم واضمروا الشر حتى جعل الخلافة في آل علي ابن ابي طالب وبايع علي بن موسى بالخلافة من بعدهِ وامر جندهُ بطرح السواد شعار بني هاشم واتخاذ الثياب الخضر يومئذٍ ثارت ثائرة بني العباس عليهِ ليلم الشديد الى العلويين واحسانهِ اليهم فخلعوهُ عن الخلافة وبايعوا ابرهيم المهدي وعمودُ المبارك

بويع ابرهيم المهدي بالخلافة والمأمون يومئذٍ في خراسان على انهُ لم يتمتع بالملك طويلاً حيث قضى الله على علي بن موسى فمات واتصل خبر موتهِ باهل بغداد فتاقت نفوسهم لرجوع المأمون الى الخلافة لما رأوهُ فيهِ من علو الهمة وحسن السياسة وسعة العلم وكان المأمون يعرف ذلك منهم فلما زالت اسباب النفور بموت علي بن موسى قام الى بغداد فهرب ابرهيم المهدي واستتب للمأمون الملك وانقطعت الفتن وعاد فامر برجوع الجند الى لبس السواد

وكأن الدهر ندم على اساءتهِ الى مصلح عظيم همّ النهوض بالامة الى ذرى المجد فعاد وكفّر عن الاساءة بمسالمة المأمون والاستكانة اليهِ فقضى بقية حياتهِ القليلة غير مشغل بغير الاصلاح الا في الاحايين في مناوشات غير هامة بينهُ وبين ملوك الروم

عاش المأمون ثمانية واربعين عاماً وتولّى منها الملك عشرين عاماً وكان في تضاعيفها مثال الهمة العالية وعنوان العدل والحلم وقدوة رجال الاصلاح

قلنا ان اباهُ هرون الرشيد عهد بتربيتهِ ان تقر من جلة النساء فتلقن علمهم المعروف يومئذٍ وشب وهو متفنن بارع فيما تلقفهُ من الاداب والمعارف واذ انتهى الملك اليهِ جعل

يقرّب منهُ العلماء والشعراء ويبالغ في اكرامهم ويجري الرزق عليهم ابتغاء نشر العلم والنهوض بالامة الى ذرى الحضارة والعمران

فانشأ مجالس الترجمة وجمع في بيت الحكمة ما استطاع من الكتب الموضوعة في لغات اهل الحضارة في تلك الازمنة كاليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية والعربيّة ووقف الناس على رغبته الشديدة في ذلك فجعلوا يتفانون في جمع الكتب والمؤلفات على اختلاف ابحاثها ويتسابقون في اهدائها الى بيت الحكمة ارضاءً لهُ وتزلفاً اليهِ

والّف مجالس الترجمة من حنين بن اسحق العبادي الذي كان نابغة زمانهِ في صناعة الطب وهو عارف باللغة اليونانية فنقل كتاب اقليدس الى اللغة العربية وثابت بن قرة الحراني ويوحنا بن البطريق وسهل بن سابور ويوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع فعربوا لهُ كتب فيثاغورس وارسطوطاليس وجالينوس وابقراط وغيرهم في كل فرع من فروع العلم والفلسفة . واشتغل المأمون نفسهُ بالعلم فكان اول من اهتمّ بقياس درجة نصف النهار توصلاً لتقرير مساحة الارض ولما اطلع على كتاب المجسطي ووقف على صور آلات الرصد الموصوفة فيهِ جمع علماء الفلك كيحيى بن ابي منصور وخالد المرزوي وسند بن علي العباسي وامرهم ان يصنعوا آلات طبق ما جاء في كتاب المجسطي ليرصدوا بها الكواكب ففعلوا وتولوا الرصد بالشماسية في بغداد وطفقوا يقيدون ما يتبينونهُ من رصدهم وسموهُ الرصد المأموني

وليس هذا كل ما فعل المأمون بل التفت الى احياء كل دقيقة من دقائق جسم الجنس ليكون النهوض شاملاً لجميع اجزائهِ فكان للغة نصيب من اهتمامهِ حيث حمل اساطينها على ضبط شواردها ووضع قواعدها ومما يحكى عنهُ انهُ جاء بالفراء الكوفي وامر ان تفرد لهُ حجرة من حجر القصر وان يقوم بها على وضع الكتب في اصول النحو واللغة وكان المأمون نفسهُ متأدباً بهذه الفنون عارفاً باصولها قيل انهُ كان ينظم الشعر ويجيدهُ ومما روي لهُ فيهِ قولهُ

بعثتك مرتاداً فقرّت بنظرةٍ ... واغفلتني حتى اسأتُ بك الظنا
فناجيت من اهوى وكنت مباعداً ... فيا ليت شعري عن دنوك ما اغنا
ارى اثراً منها بعينيك بينا ... لقد اخذت عيناك من عينها حسنا

ولهُ ايضاً

لساني كتوم لاسراركم ... ودمعي نموم لسري يذيعُ
فلولا دموعي كتمت الهوى ... ولولا الهوى لم تكن لي دموعُ

ومما لهُ ايضاً

انا المأمون والملك الهمام ونكني بحبك مستهامُ
اترضى ان اموت عليك وجداً ويبقى الناس ليس لهم امامُ

وكان على علو شأنهِ وسمو مقامهِ وديعاً بريًّا حليماً وقد روى عنهُ صاحب فوات الوفيات انهُ كان يقول لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا اليَّ بالذنوب. ولا شك ان النفس الكبيرة تعلو بصاحبها عن الصغائر فلا تأخذ الضعفاء بذنوب عثراتهم ولا تتنازل من مقامها العالي للاقتصاص والتشفي ممن اساء اليها او طعن عليها كما كان شأن المأمون مع المبيضين اليهِ والطاعنين عليهِ يدفعهم بالحلم ويسدهم بالعفو فقد روي عنهُ انهُ مرَّ يوماً بملاح فسمعهُ يقول لمن معهُ اترَوْنَ تظنون ان هذا ينيل في عيني وقد قتل اخاهُ الامين فتبسم المأمون وقال ما الحيلة حتى انيل في عين هذا السيد الجليل. وذكر ايضاً ان دعبل الشاعر الخزاعي هجا ابراهيم بن المهدي فرفع ابراهيم امرهُ الى المأمون فقال لهُ لك اسوة بي فقد هجاني من قبلك وقال فيَّ

اليومني المأمون خطة جاهلٍ او ما رأى بالامس رأس محمدِ

ومع ذلك رضيت بما قال وعفوت عنهُ. وحكى عبد الله بن طاهر قال كنت يوماً عند المأمون فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبهُ احد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام ان ياكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام الى كم تنادي يا غلام. فنكس المأمون رأسهُ فما شككت ان يأمرني بضرب عنقهِ ثم نظر اليَّ فقال يا عبدالله ان الرجل اذا حسنت اخلاقهُ ساءت اخلاق خدمهِ واذا ساءت اخلاقهُ حسنت اخلاق خدمهِ وانَّا لا نستطيع ان نسيءَ اخلاقنا لنحسن اخلاق خدمنا

وترى كتب التاريخ مملوءة بنظائر هذه الاخبار عنهُ الدالة على وفور حلمهِ وسمو عواطفهِ وحسبك منها ما لا ريبة في صدقهِ عفوهُ عن عمهِ ابرهيم بن المهدي يوم تنقب وخرج في زي امرأة فاستراب بهِ الحارس واقتفى اثرهُ حتى كشف امرهُ وساقهُ الى المأمون فاطلق سبيلهُ وعفى عنهُ

وجملة القول ان الخليفة المأمون كان شريفاً في عواطفهِ كبيراً في عملهِ عظيماً في همتهِ واقدامهِ نهض بامتهِ الى مراقي الحضارة وشرفها على سائر الامم وجعلها محط رحال العلم والتجارة والزراعة والصناعة بعد ان دالت دولة الفلسفة من اثينا وخمدت شوكتها من الاسكندرية يوم كانت اوربا غارقة في بيداء الجهالة تمرح بها القبائل من الجرمان والغالة وغيرهما ورائدهم السلب والنهب وليس فيها الاَّ القرى والدساكر القائمة بالاكواخ والمنازل الحقيرة المنبثة عن فقر اهلها وشظف عيشهم والقسطنطينية يومئذٍ في دور التأخر مشرفة على الاضمحلال

ص . ي